

صورة البطل الصوفي بين الواقع التاريخي والمخيل الشعبي

"عبد القادر الجيلاني في الشعر الجزائري نموذجاً"

The image of the Sufi hero between historical reality and popular imagination - Abdelkader Al-Jilani in Algerian poetry as a model

عبد القادر هني*

✦ خالد تواتي

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/06/26	تاريخ الإرسال: 2020/07/24
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص

تهدف هذه الدراسة للبحث عن صورة "سيدي عبد القادر الجيلاني" في الشعر الشعبي الجزائري كبطل صوفي ، والكشف عن الظروف التي ظهرت فيها هذه الشخصية بوصفها بطلا صوفيا . كما تتبع في عناصرها التمهيدية على الحاجة الإنسانية إلى وجود بطل ترافق حياة الجماعات البشرية عبر العصور و الأمكنة ، لا سيما حين تشتد الأزمات ويستبد القهر ، فكان لا بد من ظهور بطل يتجاوز بقدراته هذه الأزمات ويخفف من ذلك القهر ، ونبين كيف تنتج الجماعة نتاج بطلها أو تعيد تطويره بحسب تطورها المادي والفكري ، ولا يهم أن يكون للبطل وجود تاريخي أو أن يكون محض خيال .

الكلمات المفتاحية: صورة ، البطل ، التاريخ ، الأسطورة ، الخيال ، الشعر ، الشعبي .

المؤلف المرسل: عبد القادر هني henni.abdelkader38@gmail.com

*المركز الجامعي تيسمسيلت henni.abdelkader38@gmail.com

*المركز الجامعي تيسمسيلت khaledtwati@gmail.com

Abstract:

This study aims to search for the image of "Sidi Abdel-Qader El-Gilani" in Algerian popular poetry as a Sufi hero, and to uncover the circumstances in which this character appeared as a Sufi hero.

It also follows in its introductory elements on the human need for a hero, especially during crises, where the emergence of the hero is necessary to overcome these crises, and we show how the group produces its hero or redevelops it according to its material and intellectual development.

Keywords: Hero, image, history, legend, fantasy, folk , poetry.

*** **

1. مقدمة:

لسنا نغالي إذا اعتبرنا البطل عبر امتداد العصور حاجة نفسية واجتماعية لكل أمة، ومهما تنوعت أشكاله وتعددت صوره إلا أن وظيفته لا تعدو أن تكون وظيفة الحلم، فإلى جانب التنفيس عن المكبوتات -لاسيما عند الجماعات المقهورة- فهو يمدنا بطاقة إضافية للاستمرار في الحياة والتطلع نحو مستقبل أفضل، فالبطل -من غير شك- شعور مرتبط بقلب الجماعة وعقلها، ورغبة ترسمها الجماعة بريشة الآلام والآمال.

لذلك لا ندهش إذا أحيط البطل في كل العصور وعند كل الأمم بهالة من التمجيد والتقدیس، ونُظر إليه بعين الإجلال والإكبار، فاليونان كما جاء عند أحمد أمين "خلعوا على أبطالهم قداسة الآلهة، وكانوا في ذلك يعبرون عن رغبتهم وحاجتهم إلى امتلاك القوة التي كانت أساس الحياة لديهم، ويصفون في الوقت ذاته حيرتهم وعجزهم أمام الطبيعة وقوتها، والعرب في جاهليتهم لما كانت حياتهم حياة حرب جعلوا من الشجاعة أكبر فضائلهم، وكان أفضل رجل في نظرهم من حمى العشيرة وذاد عنها¹.

ومن المعلوم أن مفهوم البطل على إطلاقه، مغاير لمفهوم البطل الشعبي، فالأول كما يعبر حسن نجيب المصري "له سند من التاريخ، ويندر أن يقع فيه ريب أو مرأ حول وجوده الواقعي، أما الثاني فيمزج فيه التاريخ الحقيقي بالأسطورة الخيالية²، وبغض النظر عن طبيعة وجوده، فمن الواضح لدينا، أنه يحافظ على الطابع البشري أو جزء منه على الأقل، ويمثل في تجلياته الإنسانية في كل أبعادها سواء كانت مثالية أو واقعية.

ولا غرو أن ترى الجماعة في بطلها الشعبي صورة المخلص والمنقذ الذي تستطيع من خلاله إحراز الانتصار والغلبة على مشاكلها، لأجل ذلك، كان لزاما على البطل أن يتسلح بترسانة من الفضائل والخصائص المتميزة حتى يتجاوز الصعوبات والعراقيل التي تقف أمام هدفه المنشود، ومن أبرز فضائل البطل الشجاعة، "فشجاعة البطل هي محور تفوقه وبراعته، وإذا ما جاز لجمهور المستمعين أن يقبلوا بتلعثم البطل أو باقترافه للمحذور أو بوقوعه في شرك الشرير لغبائه، إلا أنهم أبدا لن يقبلوا بضعفه أو هشاشته عظامه، ذلك أن صورة البطل ونموذجه المثالي في المتخيل الشعبي يقتزن دوما ببروز عضلاته وقدراته على الانتصار على عشرات الفرسان.³

2. البطل بين الباعث والأمل:

لا شك في أن هناك صلة وثيقة بين تطور صورة البطل الشعبي وتطور الحياة العقلية والمادية للجماعة البشرية، ومن غير شك أيضا أن الأمة تغير نظرتها وموقفها من أبطالها حسب موقفها من طبيعة الحياة المعاشة، فالأبطال حسب أحمد أمين "هم الذين تتبلور فيهم آمال الأمة، وتتحقق فيهم مطامحها، فهم يخلقون الأمة من جهة وتخلقهم الأمة من جهة أخرى.⁴

ومن المفيد في هذا المقام أن نشير إلى أثر الحكومات الشمولية والسياسات الفاشلة في تعميق بؤس الناس وشقائهم، ومن المحتمل أن يكون انصراف الناس إلى حياة الزهد في أمور الدنيا ولذائدها، وإظهار الورع والتسك نوعا من المعارضة الشعبية السلبية، ومقاومة منزوعة السلاح تقوم بديلا وتعويضا عن شعور الأمة بالقهر، وحلما يدفعهم للبحث عن السعادة في السماء ويخفف عنهم بعض البؤس والشقاء الذي يعيشونه في الأرض.

وتفسيرا لذلك رأى جولدتسمير أنه "حدث تغير في النظر إلى المثل الأعلى للحياة الإسلامية، وأن إعجاب الناس بتلك السمة العسكرية التي كانت لأبطال الإسلام تراجع أمام تأثير الصوفيين، فانصرف الناس عن هؤلاء الفرسان والكمأة نحو وجوه الزهاد الشاحبة، وافتتنوا بأجساد العباد الهزيلة، وأعجبوا بالرهبان المنقطعين في الصوامع، ولم يكتفوا

بذلك بل أضافوا إلى صور الأبطال الأقدمين في عصور الإسلام الأولى والذين كانوا مثالا يحتذى صفات البطولة الجديدة فجرّدوهم بذلك من سيوفهم وألبسوهم أردية الصّوف⁵

و لا بأس في أن نزعّم أنّ الأُمَّة لا تنشُد البطل بالِاحاح إلّا حينما تظهر الأزمات، وتتفاقم الأخطار، وتتوق إليه أكثر حينما تعوزها الحلول المناسبة أو تفشل أمام مشكلات الحياة، ولا تتوقف مهمة البطل الصوفي عند حدود ما يمده من حلول تخص الحياة الدّنيا، بل يقدم للجماعة إجابات لأسئلة الدنيا والآخرة، والبطل الصوفي من هذه الناحية هو تجسيد لوعي اجتماعي يرغب في تفسير الواقع أو الثورة عليه، ومن أجل ذلك لا تتحقق أهميته ودوره إلّا بمقدار وثوق علاقته بالجماهير واستيعابه لمتطلباتهم ليحقق - حسب قول جليل راشد فالج - "صيغة الأمل والملاذ لدى الجماعة التي تجابه معضلات الحياة وأزماتها العصبية"⁶، ويستطيع بما يتمتع به من مواهب أن يقوم -في عين من يؤمن به - بحراسة الدين وسياسة الدنيا في وقت واحد معا.

والظاهر أنّ مصدر قوّة البطل الصوفي تكمن في الأسس التي صاغها الصوفيون لبناء فكرة الإيمان، فإذا كان الإيمان عندهم - كما يوضحه جولد تسيهر "هو معرفة الله والخضوع له، والمحبة بالقلب وتحرير النّفس من شوائب المادة وأدرانها"⁷، فإنّ المؤمن (المريد) سيدخل من غير شكّ إلى دائرة محصنة بأجواء إيمانية تمنعه بالقوّة من أن يتأثر بأيّ مثير من أمور الدنيا، وسيتعامل مع أيّ خطر بتقنية الهروب إلى الأمام، والقفز على الواقع، فيضمن بذلك البطل الصوفي ولاء (المريدين) في كلّ إخلاص ويقين.

وليس سهلا أن نفصل بين البطل الصوفي والبطل الشعبي غير الصوفي في مخيل الجماعات العربية والإسلامية؛ لأنّ كليهما صورة لما تحلم به الأُمَّة، وكما أسلفنا الذكر، فإنّ تغيّر الأحداث هو الذي يجبرنا على تغيير وجهة النّظر إلى التّمودج الأعلى، والمثال المحتذى، ومع ذلك فإنّ الباحث يميل إلى وجود تماهي بين الصورتين، وأنّه في أحيان كثيرة يكون البطل الصوفي فيها بطلا شعبيا.

3. عبد القادر الجيلاني في ضوء التاريخ:

صورة البطل الصوفي بين الواقع التاريخي والمخيال الشعبي

شكلت شخصية (عبد القادر الجيلاني ت561هـ) ميدانا واسعا للباحثين في التراث الإسلامي عامة والمشتغلين في حقل التصوف خاصة، وتنوعت هذه الدراسات، من دراسات أدبية، وفكرية، وتاريخية حسب تنوع تخصص الباحثين وتبعاً لاهتماماتهم الثقافية والإيديولوجية، ويبقى -في نظر الباحث- محور الدراسات مضطرباً كلما تعلّق الأمر بتاريخية هذه الشخصية القلقة، إذ لا يمكننا أن نغفل دور الرواة والمترجمين لسيرة عبد القادر الجيلاني، وما قاموا به من ملء لفجوات التاريخ، وردم للوقائع والأحداث، بما وهبوا من مؤهلات فنية وخيالية.

لذلك لا نستغرب إذا سبقت أوصافه وسماته التعريف بشخصيته فهو عند الكثير من مريديه "الشيخ الزاهد العارف القدوة، شيخ الإسلام، سلطان الأولياء، إمام الأصفياء، محيي الدين والسنة، ومميت البدعة، أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن يحيى الزاهد، ابن محمد داوود بن موسى الجون، ابن عبد الله المحض، ابن الحسن المثنى، ابن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمه أم الخير فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسني الزاهد، فهو حسني من جهة الأب وحسيني من جهة الأم، وعمته الشيخة الصالحة أم الخير عائشة⁽⁸⁾.

ويذكر بعض الباحثين أنّ بعض ألقاب الشيخ كانت معروفة في أيامه، ومن بين تلك الألقاب ما أضافه هو إلى نفسه كلقب (الباز الأشهب) الذي جاء في بعض شعره في قوله:

أنا بُلْبُلُ الأفراحِ أملاً دوحها طرباً وفي العليل باز أشهب⁽⁹⁾

ولقد ولد الشيخ عبد القادر في جيلان سنة 471هـ الموافق لـ 1078م فعرف بالجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي، وتشير بعض المصادر إلى أنّ "مولده كان في شهر رمضان، وأنه نشأ يتيماً من جهة الأب على رغم أنّها (أي المصادر) لم تذكر هذا صراحة⁽¹⁰⁾، أما أوصافه فلقد "كان الشيخ نحيف البدن، عريض الصدر، عريض اللحية، طويل، أسمر اللون، مقرون الحاجبين، ذا صوت جهوري، وسمت بهي، وقدر عليّ، وعلم وفي⁽¹¹⁾

لا يعنى التاريخ بطفولة الأعلام والشخصيات الكبيرة إلّا لما لما لذلك عندما يسكت التاريخ يتحدّث الخيال، والغريب أنّ هؤلاء الأعلام أنفسهم لا يذكرون أشياء مهمّة تساعد في كتابة تاريخهم، ومنهم من لا يعلم مولده كما حدث مع عبد القادر الجيلاني، فلقد جاء في كتاب تفسير الجيلاني أنّه سئل "قدس الله روحه عنه (أي عن مولده) قال: لا أعلمه، لكن قدمت إلى بغداد السنّة التي مات فيها التّميمي وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة⁽¹²⁾، ومع ذلك يابى مريدوه إلّا أن يتحدّثوا على كلّ شيء يخصّ ولادته وطفولته، وكأنّه لا يعجبهم أن يعيش-كما هو مفترض- طفولته وصباه كأبي طفل عادي يولد في جيلان وأن ينشأ ويتعرّع كما جرت تقاليد ذلك العصر، وأن يلتحق كأقرانه بالكتاتيب لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ القراءة والكتابة.

لا نشكّ في رحلة الشيخ إلى بغداد، ولا غرابة في أن ينقطع إلى العلم طالبا ومعلما لمدة تزيد عن سبعين سنة، كما لا ندهش لكثرة شيوخه ومعلميه، فلقد أورد صاحب (تفسير الجيلاني) قائمة طويلة لهؤلاء المعلمين، فمنهم الفقيه والمحدّث، وصاحب الأدب، وأئمة التّصوف⁽¹³⁾، ويبقى أمر كثرة الشّيوخ عاديا، مادام الأمر في بغداد التي كانت في عصر الشيخ عنوان الحاضرة العلميّة "بما تضمنه من تنوع وثراء، فكانت مجمعا للعلماء والفلاسفة، ومركزا للفقهاء والمفسرين والمحدّثين، ومنتدى للشعراء والكتاب، وأصحاب التراجم والسّير، والتاريخ، ومحاربا للزهاد والصوفيّة⁽¹⁴⁾.

وجدير بالشيخ بعد هذا التّعليم المعتمّق، والتّحصيل الكبير أن يتصدّر للتّدريس والفنون والوعظ، وأن يجمع الله القلوب على حبّه، وأن تنتهي رئاسة العلم في العراق إليه، ليقصده النّاس في الآفاق، وتهابه الملوك والسلّاطين، وليس بعيدا على مثله أن يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك⁽¹⁵⁾.

وتشير الأخبار أنّه "كان يُدرّس ثلاثة أيام في الأسبوع، وكان عدد طلابه يتزايد بسرعة ملفتة حتّى أصبح كلّ درس له يجذب عشرات الآلاف، ودرج الكثير من الطّلاب على كتابة محاضراته وحفظوا للتّاريخ كلماته⁽¹⁶⁾، ومما زاد من مكانة الشّيوخ وعلو منزلته أنّه كان يفتي على المذهبين الحنفي والشافعي، رغم أنّه كان على المذهب الحنبلي.

من المهم أن ننظر إلى الحركة الصوفية على أنها نظام ساهمت الحياة العملية في تشكّله على هيئة طرق وطوائف، أين يعمل أصحاب هذه الطرق على غرس التّصورات الصّوفية للدين والدّنيا حسب اعتقاد جولدتسهر الذي يذهب أيضًا إلى أنّ ارتباط أفرادها (أي الحركة الصوفية) في جماعات يرجع إلى حوالي 150هـ/114م، حيث اختار هؤلاء المتصوفة منازل خاصة، وصوامع منعزلة حيث يكون الهدوء، وتقلّ الضّوضاء والجلبّة، كما يذهب كذلك إلى وجود تأثير عقدي هندي، شكّل طقوس المتصوّفة، ذلك أنّ المريّد عندما يتم قبوله في صفّ الجماعة الصّوفية يمنح خرقة تعتبر رمزًا للفقر والاعتزال⁽¹⁷⁾، وهذا الوصف يتفق مع الذي جاء في سيرة عبد القادر الجيلاني أين نقرأ أنّه: "أخذ علوم التّصوف عن الشّيخ حماد بن مسلم الدّباس، وأنّه لبس خرقة التّصوف من القاضي أبي سعيد المخرمي الذي له سلسلة من المشايخ تربطه بالشّبلي، فالجنيد، فالسّري السّقطي، فمعروف الكرخي، فدواود الطّائي، فحبيب العجمي، فالحسن البصري، فأمر المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه"⁽¹⁸⁾، ولقد جاء في خبر سياحته وانقطاعه عن شهوات الدّنيا قوله: "ما جلست للنّاس حتّى سحت خمسًا وعشرين سنة في البراري، وكنت أكل من نبات الأرض وأشرب من الأنهار"⁽¹⁹⁾، كما يمكننا أن نقول أن وظيفة الشّيخ عبد القادر الجيلاني في المدرسة النّظامية كانت لها أثر إيجابي في تزايد مريديه، وانتشار طريقته القادرية، فعّد الطّرق الصّوفية التي تتصل بسلاسل مشايخها به، يتجاوز بشكل كبير وملفت الطّرق المرتبطة بأيّ شيخ آخر⁽²⁰⁾

ومن الملفت أن تكون وفاة عبد القادر الجيلاني رحمه الله في رمضان سنة 561هـ الموافق لـ1167م وقد جاوز التسعين سنة، وهذا يكون مولده في رمضان، وتكون وفاته في نفس الشّهر⁽²¹⁾، بعد أن ترك وراءه عدة مؤلفات وتصانيف معتبرة تتسم بالدّقة العلمية والفهم السّليم، كما خلّف عددًا لا يحصى من مآثور كلامه، ودرر بيانه، ومن أشهر مؤلفاته نذكر ما يلي :

- الغنية الطّالبي طريق الحق: وهو من أشهر كتب الشّيخ في الأخلاق والآداب الإسلامية وهو جزآن.

- الفتح الرّباني والفيض الرّحمانى: وهو عبارة عن مالس للشيوخ في الوعظ والإرشاد.

- فتوح الغيث: يتألف من مقالة في العقائد والإرشاد.

- سر الأسرار في التصوف.

- تفسير القرآن الكريم.

- الدلائل القادرية.

- مجموعة خطب (22).

4. عبد القادر الجيلاني عابرا للتاريخ:

غالبًا ما يكون للأبطال في الأدب الشعبي وجود سابق في الأدب الرسمي أو في الثقافة العالمية بصفة عامة، لذلك لا تتحرج الجماعة الشعبية عندما تعتبر بعض الأبطال النصيين والشخصيات الورقية أبطالًا تاريخيين أو أناسًا حقيقيين عاشوا على مسرح الحياة الواقعية.

وإذا جاز للجماعة الشعبية أن تزرع الروح في تلك الشخصيات الورقية، وتهب الحياة لهؤلاء الأبطال النصيين، فإن بمقدورها أيضًا أن ترتفع بالأبطال التاريخيين والشخصيات الحقيقية إلى عالم إبداعي جديد، عالم يمتزج فيه الواقع بالخيال، والتاريخ بالأسطورة، أين يقف البطل على حافة التاريخ، لينجز مهامًا في أفق آخر، فهو من منظور الجماعة عابر للتاريخ ومستعد لتغيير الواقع.

من الصعب أن نحدّد بدقة انتقال عبد القادر الجيلاني من عالم التاريخ إلى بطل عابر للتاريخ، كما يصعب القبض على تلك اللحظة التاريخية التي جعلت منه بطلاً شعبيًا خالدًا في ذاكرة بعض الجماعات الإسلامية، ومع ذلك يمكن أن نستأنس بتلك الأخبار والحكايات الخارقة التي تدخل تحت مسمى (الكرامات) ونجعل منها هامشًا مرافقًا للتاريخ، وبعبارة أخرى هامشًا يسير خلف التاريخ وفي ظله؛ عندها سيكون بالإمكان أن نقرب من بدايات ذلك الانتقال السحري الذي أهل الشيخ (البطل) لاحتلال تلك المكانة المركزية داخل الحياة الشعبية.

عادة ما تكون ولادة الأبطال مغايرة لولادة غيرهم، لأجل ذلك توصف على أنّها ولادة مدهشة أو عجيبة، ولم تكن ولادة بطلنا مخالفة لهذا النّسق العجائبي، فلقد ذكر علي زيعور أنّه "ولد في هلة رمضان (يوم مقدس) ولم يكن يرضع ثدي أمه إبان الصّيام (سلوك مقدّس) وإذا لم يعرفوا بداية ذلك الشّهر الحرام فقد جاؤوا أمّه وسألوها فأجابت: لم يقضم له اليوم ثدياً، فاتضح لهم أنّ ذلك كان أوّل الشّهر الفاضل، هنا إذا تنبأ المولود، وأرشد قومه، وتلقى علماً لدنياً دون تجربة واكتساب أو تذكر، وبذلك فهو شبه إله، إنّه منقذ جماعته من حيرتهم والمتصل بالغيب والبطل المعروف قبل ولادته وذو الطّفولة المتميّزة حتّى الولادة العجائبية واللامألوفة⁽²³⁾ .

وتأتي نبوءة ثانية، ولكن هذه المرة على لسان ثور كان يستعمله في زراعة حقله، حيث يلتفت إليه ذلك الثّور ليقول له بصوت مفهوم: "أنت لم تخلق لتكون فلاحاً"⁽²⁴⁾، ومن المفيد هنا أن نشير إلى قول أحمد شمس الدّين الحجامي الذي يذهب إلى أنّ "للنبوءة دوراً كبيراً في إخراج البطل من حيّز الإنسان العادي إلى حيّز الإنسان الأسطوري، ليدخل بذلك إلى دائرة الكون الكبير ويرتبط به ارتباطاً وثيقاً، ويضيف أنّه لا يوجد بطل لسيرة من السّير لم يرتبط ميلاده بالنبوءة، فهي ترتبط حتمًا بوجوده الفعلي، وتحدّد له المصير المعد له، والدور الذي سيلعبه، وليس في مقدور أي قوّة أن تمنع أو تعيق تحقق هذه النبوءة"⁽²⁵⁾ .

ليس من شأننا في هذا البحث أن نسجل كلّ الكرامات والمناقب التي امتلأت بها سيرة الشّيخ (البطل) فهي وإن كانت لا تخلو من المغالاة والعجائبيّة، فلقد وجدت تسامحاً عند بعض الأطراف القوية والمحسوبة على المذاهب الإسلامية الصّارمة، الأمر الذي يجعلنا نتوقف للنظر باهتمام إلى قول عزّ الدّين بن عبد السّلام شيخ الشّافعية في زمنه، الذي ذكر أنّه "لم تتواتر كرامات أحد من المشايخ إلّا الشّيخ عبد القادر فإنّ كراماته نقلت بالتّواتر"⁽²⁶⁾، ومعنى هذا الكلام في نظر الباحث أنّه يشجّع بطريقة أو بأخرى على الإقبال على تلك الكرامات، ويعطي سنداً قويّاً للإيمان بها، ومن الرّاجح أن تكون نسبة عبد القادر الجيلاني إلى مذهب الحنابلة سبب قويّ في قبول طريقته، والإيمان بولايته، فلقد جاء في كتاب (الإمام مالك) أنّ "بعض الباحثين استغربوا أن يروا بين الصّوفية والفقهاء والمحدثين شخصاً كعبد القادر الجيلاني، الذي انتشر نفوذه الرّوحاني من أقصى أنحاء الهند إلى

صحاري إفريقية، واستغربوا أكثر، كونه حنبليًا خاصة فيما يتعلق بمسائل العقيدة والفقه⁽²⁷⁾

5. صورته في الشعر الشعبي الجزائري:

لا يمكننا أن نغفل الدور الذي لعبته الحركات الصوفية في توجيه سلوك الأفراد نحو قيم المحبة الإلهية، ومحاولة الاقتراب من الذات الإنسانية وتنقيتها من شوائب الحياة المادية، كما لا ننكر "دور الأفكار الصوفية التي أنتجت بدورها أدبا راقيا في كل لغات العالم"⁽²⁸⁾، وعبر مختلف العصور ولم تقتصر هذه الأفكار على الآداب الرسمية بل امتدت وبقدر كبير إلى الآداب الشفوية والفنون الشعبية، ومن المفيد هنا أن نشير إلى الشعراء الشعبيين الجزائريين، وأن ننظر بعين الإعجاب إلى ذلك الإبداع الذي سجلوه على صفحات الزمن، وأن نبه إلى "دورهم الهام في نقل الحوادث السياسية والتاريخية والاجتماعية للجزائر إبان فترة الاحتلال، مما لم يتسنّ للأدب الرسمي تسجيله"⁽²⁹⁾.

ويمكن أن نعتبر التوجه الصوفي في الشعر الملحون الجزائري واحدًا من الروافد التي ساهمت في الحفاظ على الهوية العربية والإسلامية والتي حاول المستعمر الفرنسي طمسها بكل الوسائل المادية والفنية، ولا غلو إذا قلنا أن غالبية شعراء الملحون في الجزائر -لاسيما الفحول منهم- كانوا على درجة عالية من الثقافة التقليدية، أو على الأقل انتفعوا بقدر كبير منها حسب متطلبات العصر، وارتقت جماعة منهم إلى سدّة السلطة مثلما جرى مع أبي عثمان المنداسي "الذي كان مؤدبا ومؤنسًا للسلطان مولاي إسماعيل"⁽³⁰⁾، وعبد الله بن كروي ومصطفى بن براهيم اللذان كانا قاضيين في قبيلتهما وكان محمد بلخير جنرال حرب إبان الثورات الجزائرية ويكفيه فخراً أن قال فيه (جاك بارك) "بلخير منشد الشجاعة البدوية، والأمل الأبدى، يقدم لنا في أشكال صافية رسالة اليوم والغد"⁽³¹⁾.

هذا ويمكن أن نرى في أغلبيتهم شخصية المريد والداعي إلى توجيهات الطريقة التي ينتمي إليها، ولا غرابة أن يحضر (عبد القادر الجيلاني) في كل تلك الطرق الكثيرة سلطانا للأولياء ورئيسًا لهم، وربما توسل الشاعر أو المريد لسيده وشيخه بهذا السلطان كما قال الشاعر محمد بلخير في مدحه لشيخه سيدي الشيخ بن الدين⁽³²⁾:

رَحْلُ البِيضَا لِلَّهِ حُرْمَتُكَ سَيِّدِي لَا تَنْسَانِي

جُبْنَآلِكَ الصَّلَاحِ وَبَيْنَ طَافُوا فِي كُلِّ أَبْلَادِ

سَرَّحْنِي يَا سَيِّدِي بِجَاهِ لَعْرَجِ مَوْلَى بَغْدَادِ

وللتوضيح فإنَّ (رحل البيضا) هو لقب لسَيِّدِي الشَّيْخِ بن الدِّين، و(لعرج مولى بغداد) هو لقب للشَّيْخِ (عبد القادر الجيلاني)، فهو يدعو شيخه (سيد الشَّيْخ) ليفكه من سجنه الذي حبس فيه وهذه الأبيات من أدب السَّجون في الشَّعر الملحون الذي يحتاج - في رأي الباحث - إلى الالتفات إليه، وتعميق الدراسات حوله، من طرف الباحثين والمهتمين بهذا الأدب.

وإذا كان الشَّاعر (محمَّد بلخير) يرى في (عبد القادر الجيلاني) بطلًا منقذًا بمقدوره أن يفكه من سجن الفرنسيين ويرجعه من منفاه إلى بلاده الجزائر، فإنَّ (عبد القادر الخالدي) شاعر الحبِّ والغزل لا يستنكف في أن يجعل من بطله الصَّوفي مرافقًا له في غرامياته، وربَّما نظر إليه على أنَّه إله حبِّ يستعين به على كسب قلوب العذارى، ولا نستبعد من شاعرنا هذه النِّظرة، وهو المعروف بثقافته الواسعة والمتنوعة، فلقد كان مزدوج اللغة، مطلعًا على الآداب الفرنسية واليونانية، ولقد جاء ذكر (eros) إله الحبِّ في إحدى قصائده حيث يقول⁽³³⁾:

"إيروس eros" احجب ذيك الجئة ما تلحقها عين المعين

ويقول في ذكر (عبد القادر الجيلاني):

غادي الرِّيم زَاير عبد القادر الفارس المنوِّر رايس لقطاب

بين القباب والوعدة والنَّجدة فلاس كلِّ حدة واقفال اصعاب

إنَّ إطلاق وصف (الفارس المنوّر) على عبد القادر الجيلاني يرمز بوضوح إلى بطولته فهو صاحب النور الذي يضيء الأشياء من حوله، وهو القادر على فكّ الأغلال والقيود وبتعبير شعبي (فلاس كلّ حدّة) أي إنّه مفتاح لكلّ الأبواب الموصدة.

إنّ كثرة الألقاب التي تمتع بها (عبد القادر الجيلاني) بوصفه بطلا صوفيّا في المجال الشعبي الجزائري تجعل المتأمل فيها يقف عند تقابلات هامة، ترتبط في وضوح مع صفات الدّات الإلهية، بل تحاول في كثير من الألقاب التّفوق عليها في تحقيق معاني التّعظيم والتّقديس، فمن يلاحظ اسم (قَدُور) مثلا يكتشف أنّه جاء على شكل صيغة المبالغة من (فعلول) ولكن بزيادة شدّة من أجل أن تتوافق الكلمة مع طبيعة اللّهجة الجزائرية التي تميل إلى التّسكين في اغلب أحوالها، ولا تقبل ترادف المتحرك إلّا لمأما، ويتضح لدينا أنّ اسم (قدور) مماثل لاسم الله الذي جاء في صيغة اسم فاعل (قادر).

والأمر نفسه يمكن أن نقرأه في لقب (اقويدر) الذي جاء في صيغة التّصغير لاسم الجلالة (القادر)، ومن المؤكّد أنّ التّصغير في هذه الحالة لم يأت معبّرا عن التّحقير، بل أتى دالا على التّحبيب لأجل مكانه الملقب. بينما تحتل ألقاب أخرى - عند مريدي عبد القادر الجيلاني- مراتب أقلّ من الألقاب السّابقة، وعادة ما تكون أوصافا مثل (بوعلام) أي: أبو علم، أو بمعنى آخر صاحب الرّاية؛ فمن المتعارف عليه أنّه لا يكون الفارس صاحب راية حتّى يعد في الأبطال والكماة، بينما يعي لقب (بودريالة) رمزاً لانتماء عبد القادر الجيلاني إلى أصحاب الخرق، وتأتي طبقة ثالثة من ألقابه مشتقة من لقبه (الجيلاني) أو تحريفا له مثل (الجيلالي) و(جلول)، أو معبّرة عن نسبته إلى بغداد موطن علمه فيقولون (البغداذي) ومن الملفت أن يتكرّر نعتة ب (راع الحمرا) أي صاحب الفرس الحمراء أو النّاقة الحمراء خلال ذكر ألقابه أو أوصافه، ومن المحتمل أن تكون هذه الصّفة قد تسللت من مصادر فارسية، أو على الأرجح من تلك المصادر التي جاء فيه ذكر صاحب الجمل الأحمر على لسان زرادشت في قوله: "تمسكوا بما جئتم به إلى أنّ يجيثكم صاحب الجمل الأحمر، وللإشارة فلقد فسّرت بعض الدوائر الإسلامية هذا الكلام على أنّه بشارة بنبوّة محمد

صورة البطل الصوفي بين الواقع التاريخي والمخيال الشعبي

ومن هنا يمكن أن نشير إلى ما يصاحب تلك الألقاب والأسماء من قصص ترتبط في مجملها بأفعال مستحيلة، والتي لا يمكن أن يقوم بها إلا الأبطال الخارقون، وترتبط كثرة هذه الألقاب والصفات من جهة أخرى بقول صاحب التجربة نفسه (عبد القادر الجيلاني) الذي قال: "يا أهل الأرض شرقًا وغربًا...ويا أهل السماء، قال الله تعالى: (ويخلق ما لا تعلمون) أنا مما لا تعلمون، أنا لبّ بلا قشر، بيني وبينكم وبين الخلق بعد السماء والأرض، فلا تقيسوني بأحد، ولا تقيسوا أحدًا علي (35).

حتمًا سيدفع مثل هذا التصريح الخطير مريدي الشيخ (عبد القادر الجيلاني) إلى رفعه فوق خانة التصنيف، ووضعه فوق كلّ ترتيب، وسيناله منهم من التقديس ما يجعله يعلو مكانة الأنبياء والمرسلين، وهذا ما نجده متحققا في قصيدة (يا ريس الولايا) للشاعر الشعبي (منور ولد يخلف المجاهري) الذي قال (36):

رَبِّ الْيَلَاهِ نَظَرُكَ وَاعْطَاكَ قُبُولُ	فِي الْمَلِكِ سَخَرُكَ كَيْفَ أَبْغَيْتِ أَنْدِيرُ
الأرض والسماء في كفك مَحْمُولُ	فِي الْأَزَلِ سَابِقِ اسْمُكَ عَبْدُ الْقَادِيرِ
شَاهَدْتُ الْأَنْبِيَاءَ وَجَمِيعَ الرُّسُولِ	مِنْ أَدَمِ الْبَشَرِ حَتَّى لِلْمُنِيرِ
أَدَمُ بَكَ تَابَ غَفَرُ لَهُ ذُو الطُّولِ	مِنْ الْجِنَانِ نَزَلَ لِلْأَرْضِ غُشِيرُ
مَكْتُوبٌ فِي السَّفِينَةِ بِسْمِكَ جَلُولُ	بِكَ أَسْتَوَاتُ فَوْقَ الْجُودِيِّ لِلْسِيرِ

أَيُّوبُ بَكَ نَاحِي نَعْمُ الْفَتَّاحُ

نادى وقال ليه شفييني يا شافي	الضَّرمسي واثقلت بلَجَراح
بجاه عابد البحر في علمك خافي	آخر الزمان يضيوي مثل المصباح
ولد الرسول طه ستر الأكفافي	ببيه الطيُّور تلغى في كل صباح
غثت الذبيح وانجا من التكتافي	إدريس كنت له في الجنة مَرَكاح (37)

ومعنى ذلك أَنَّ اللهَ نظر إلى (عبد القادر الجيلاني) واختاره، وجعل له محبةً وقبولاً لدى النَّاسِ، بحيث سَخَّرَ له الملك، فالأرض والسماء محمولتان في كَفِّه ينظر إليهما كيف يشاء، وَأَنَّ اسمه موجود منذ الأزل؛ فلقد شاهد جميع الأنبياء والمرسلين من النبي آدم عليه السلام وصولاً إلى خاتم المرسلين محمد ﷺ، ثُمَّ يبدَأُ بتفصيل ذلك السبق ومرافقة (عبد القادر الجيلاني) لكل الأنبياء ومساعدتهم في التَّخَلُّص من المشاكل التي تواجههم، وإنقاذهم من المخاطر التي تهددهم، فلولاً (عبد القادر الجيلاني) لما تاب الله على آدم، ولولاه أيضاً لما نجا النبي نوح عليه السلام، ومن يتبع القصيدة إلى نهايتها يجده قد أحصى أغلب الأنبياء والمرسلين، مثل النبي عيسى عليه السلام الذي جرت خوارقه على يد عبد القادر الجيلاني، وكذا النبي يوسف الذي أنقذه (الجيلاني) من غياهب الحبِّ وغيره. ومن الواضح أَنَّ الشاعر لم يكتف في هذه القصيدة أن يجعل من (عبد القادر الجيلاني) بطلاً صوفياً فحسب، بل ذهب إلى جعله بطلاً أسطورياً خالداً، لا يعرف الموت ولا تعرفه، وبطلاً مخلصاً للأنبياء والمرسلين وجميع البشر.

وفي قصيدة الميلود الصابري الغليزاني التي مطلعها (يا بو علام راع الحمرا)⁽³⁸⁾، نكتشف في وضوح تام أَنَّ الشيخ /البطل عبد القادر الجيلاني لا يظهر للنَّاس ولا لمريديه على هيئته وصفته الحقيقيتين، بل يكون باستطاعته أن يظهر على صفة أشكال مختلفة، ومتباينة، لأجل تجريب مريده وامتحانه أو كما قال (الميلود الصابري):

مَرَّةً ابْجِيكَ مَا شِي سَايِلْ * مَرَّةً ابْجِيكَ غُلَامْ اَكْحَلْ *

مَرَّةً ابْجِيكَ شَيْخ مَدْرَبِلْ * قُطْبُ الْقُطَابِ بُودْرِبَالَة.

وَمَرَّةً ابْجِيكَ فَارِسْ كَامِلْ * بِالْحَدَايِدِ زِينَة تِشْعَلْ *

وَالسَّرَجُ مِنْ الذَّهَبِ مُشْكَلْ * جُلُولُ رَاكِبِ الْعَجَالَة.

إذن فالبطل عند هذا الشاعر له القدرة على التشكل العجائبي وكأنَّه يعيش داخل عالم سحري، لذلك يختار البطل أن يعي على صورة شيخ متسول، أو غلام أسود، أو على هيئة فارس يركب فرسه السريعة.

يمكننا أن نقرأ في تعدّد الصّور التي يظهر عليها (عبد القادر الجيلاني) في المخيال الشعبي، وخاصة تلك التي تظهره على صفة شيخ عاجز أو مشلول، أو شيخ موبوء، وأحيانا على صفة شخص قذر، قلت يمكننا أن نقرأ هذه الأوصاف كلّها على أنّها تجسيد لطريقة هؤلاء الصوفيين المعروفين باسم (الملاّمتية) أي الذين يلومون أنفسهم، والذين كانوا يلقبون أيضا بالكليبيين، وهم طبقة درجت على عدم الاكتراث، والإهمال المتجاوز لمظاهر الحياة الخارجية، والاهتمام بكلّ ما يثير السّخريّة والفضيحة بمسلكتهم، وما يجزّ عليهم من مذمّة النّاس، فيتركبون من الأعمال ما يعد مخجلا للدرجة القصوى، يبغون بذلك تطبيق مبدأ ازدراء الاحتقار⁽³⁹⁾.

6. خاتمة:

ويخلص البحث إلى أنّ استدعاء (عبد القادر الجيلاني) بوصفه بطلا صوفيا وشعبيا لم يأت مصادفة، وإنّما جاء رغبة في تحقيق أمني وأحلام فئة شعبية، عاشت ولا تزال تعيش حالة من القهر والاضطهاد، والجوع، ومن المفيد أن نشير إلى ظاهرة (الوعدة) وهي تلك الولائم والحفلات التي تقام باسم (عبد القادر الجيلاني)، وأن ننظر إليهما على أنّها تمثيل رمزي لوظيفة البطل الصوفي (المنقذ من المجاعة)، ونربط هذه الوظيفة بما روي من أخباره التي تذكر أنّه كان يجالس الفقراء ويؤاكلهم، ويحنو عليهم، ومن كلامه المأثور في ذلك قوله: "فتنّشتُ الأعمال كلّها فما وجدت فيها أفضل من إطعام الطّعام، أو دّ لو كانت الدّنيا بيدي، فأطعمها الجياع"⁽⁴⁰⁾.

ويمكننا في الأخير أن نسجّل بعض النتائج التي توصّل إليها البحث والتي نذكر منها:

- إنّ البطل الصّوفي مثله مثل البطل الشعبي لا يولد داخل الجماعة البشرية إلّا من رحم الحرمان والاضطهاد. أمّا صورته فهي تجسيد لأحلام الشعب وطموحه.

- يمتلك البطل الشعبي سندا تاريخي وآخر دينيا، يبعثان الثقة في نفوس المؤمنين به، و يعزّز الاعتقاد في إمكانية تحقيق رغباتهم.

-البطل الصوفي في المخيال الشعبي الجزائري وإن كان واحداً من جهة الحضور فهو متعدد من جهة الوظيفة، فهو بطل واحد بألف وجه.

-يتحلل البطل الصوفي في المخيال الشعبي من القيود الشرعية (الدينية)، وغالبا ما يلبس ثوب الدرويش الثائر على النواميس الخلقية.

7.الهوامش:

- 1 - أحمد أمين: فيض الخاطر مقالات أدبية واجتماعية، مؤسسة هنداي للتعليم والثقافة، د/ط، القاهرة، 2012، ص25.
- 2 - ينظر: حسين نجيب المصري، في الأدب الشعبي الإسلامي المقارن، الدار الثقافة للنشر، ط1، القاهرة، د/ت، ص103.
- 3 - نبيل حمدي الشاهد، العجائبي في السرد العربي القديم، الوراق للنشر والتوزيع، د/ط، 2012، الأردن، ص22.
- 4 - أحمد أمين، فيض الخاطر، دار الشروق، ط2، القاهرة، 2009، ص26.
- 5 - ينظر: إجناس جولد تسيهر، العقيدة والشرعية في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، تر: محمد يوسف موسى وعلى حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة ط2، القاهرة، د/ت، ص173.
- 6 - ينظر: جليل رشيد فالح ، البطل في شعر الحماسة، مجلة الرافدين، العدد 14، 1981، ص24.
- 7 - ينظر: إجناس جولد تسيهر، العقيدة والشرعية في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، تر: محمد يوسف موسى وعلى حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، ص169.
- 8 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، تح: محمد خالد العطار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط1 ، بيروت، لبنان، 2010، ص11.
- 9 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، الغوث الأعظم، الديوان الفارسي، تر: منالى اليمني عبد العزيز، أفاق للنشر والتوزيع ط1 ، القاهرة، 2016، ص9.
- 10 - ينظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، لبنان، د/ت، ص25.
- 11 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، الفتح الرباني والفيض الرحماني، ص11.
- 12 - محي الدين عبد القادر الجيلاني، تفسير الجيلاني، الغوث الرباني والإمام الحمداني تح وتخرىج وتعليق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، لبنان، د/ت، ج1، ص05.

صورة البطل الصوفي بين الواقع التاريخي والمخيال الشعبي

- 13 - ينظر: المرجع نفسه، ص 12-14.
- 14 - عبد القادر الجيلاني، الفتح الربّاني والفيض الرحماني، ص 11.
- 15 - المرجع نفسه، ص 17.
- 16 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، خمسة عشر مكتوب، تح: لؤي فتحي، وفانز فتوح، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، لبنان، 2015، ص 06.
- 17 - ينظر: العقيدة والشريعة في الإسلام، مرجع سابق، ص 153.
- 18 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، الفتح الربّاني والفيض الرحماني، ص 15.
- 19 - المرجع نفسه، ص 24.
- 20 - ينظر: عبد القادر الجيلاني، خمسة عشر مكتوباً، ص 07.
- 21 - تشير بعض المصادر إلى أنّه توفي ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر سنة 562 هـ، ينظر السفينة القادرية للشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني، تع: عبد الجليل عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 05.
- 22 - ينظر: عبد الله خضر حمد، ديوان عبد القادر الجيلاني، دراسة أسلوبية، دار القلم، د/ط، بيروت، د/ت، من ص 54 و 56 و 55.
- 23 - علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، القطاع اللاوعي في الذات العربية، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط2، بيروت، لبنان، 1984، ص 58.
- 24 - ينظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 27.
- 25 - ينظر: أحمد شمس الدين الحجامي، مولد البطل في السيرة الشعبية، دار الهلال، د/ط، القاهرة، 1991، ص 18.
- 26 - ينظر: عبد الباقي مفتاح، أضواء على الشيخ عبد القادر الجيلاني وانتشار طريقته، ص 149.
- 27 - ينظر: محمد المنتصر بالله بن محمد الزمري الكياني، الإمام مالك، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 197.
- 28 - ينظر: إجناس جولدتسهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الدين الإسلامي، تر: محمد يوسف موسى وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، ط2، ص 186.
- 29 - ينظر: نعيمة العقريب، قصيدة حيزية، دراسة تحليلية، دار الفيروز للإنتاج الثقافي، د/ط، الجزائر، 2009، ص 76.
- 30 - ينظر: حفناوي بعلي، الرحلات الحجازية المغاربية، المغاربة العلام في البلاد الحرام، دراسة نقدية، دار اليازوري للنشر والتوزيع، د/ط، عمان الأردن، 2017، ص 308.
- 31 - بلخير محمد، أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعامة وبطل المقاومة العربي بن عاشور، الصندوق الوطني لترقية الفنون والأدب، وزارة الثقافة، د/ط، الجزائر، 2008، ص 04.
- 32 - ينظر: لخير محمد، أشعار محمد بلخير، شاعر الشيخ بوعامة وبطل المقاومة العربي بن عاشور، ص 216.

- 33 - ينظر: عبد القادر الخالدي، ديوان الشَّيخ عبد القادر الخالدي، شعر الملحون، جمع محمد الحبيب حشلاف، تح: محمد بن عمر الزَّرهوني، المؤسسة الوطنية للنَّشر والاشهار، الرّويبة، ط1، الجزائر، 2003، ص117.
- 34 - عزَّ الدين بن محمد ابن الأثير الجزري، الكامل في الأثير، تح: أبو الفدا عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، لبنان، د/ت، ج1، ص198.
- 35 - عبد القادر الجيلاني، الفتح الرّباني والفيض الرّحماني، ص25.
- 36 - محمد قاضي، الكنز المكنون في الشعر الملحون، المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، د/ط، الجزائر، 2007، ص25.
- 37 - محمد قاضي، الكنز المكنون في الشعر الملحون، مرجع سابق، ص25.
- 38 - موقع يوتيوب، قصيدة يا بوعلام راع الحمر، الميلود الصابري، أداء الشيخ حمادي السعدي، بتاريخ: 16 مارس 2011، [youtube.com/watch?TV=1nby6k1d6w](https://www.youtube.com/watch?TV=1nby6k1d6w)
- 39 - ينظر: إجناس جولد تسهير، العقيدة والشريعة في الإسلام، تاريخ التَّطور العقدي والتَّشريعي في الدِّين الإسلامي، ص178.
- 40 - عبد القادر الجيلاني، الفتح الرّباني والفيض الرّحماني، ص18.